المحبـــة

١-تمهيد لابد منه:

المحبة عمل قلبى يظهر أثره على الجوارح فى اتباع أوامر المحبوب وإتيانها واجتناب نواهيه ورفضها، فتكون المحبة معبرة عن أوامر المحبوب ونواهيه بحيث تتحد رغبة المحب مع رغبة المحبوب،ولقد عبر الرسول ﷺ عن هذا المعنى حين قال: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[١]، فيكون هوى النفس تابعا لما جاء به الرسول ويكون سلوك المرء تنفيذا أو انقيادًا، فتنقاد الجوارح لهوى النفس ويكون هوى النفس تبعا لما جاء به الرسول،فيكون سلوك المؤمن تحقيقا للسنة وتطبيقا لمنهج القرآن[٢] على نحو تلقائى.

والحب اسم لصفاء مودة القلب، والعرب تسمى بياض الأسنان ونضارتها حبب الأسنان، والحباب هو ما يعلو الماء عند الغليان الشديد، وعلى هذا تكون المحبة غليانا فى القلب؛ تعبيرًا عن الاهتياج إلى لقاء المحبوب ومن خصائص المحبة الصادقة اللزوم والثبات، والعرب تقول أحب البعير بمعنى أنه يبرك فلا يقوم ويصبح ذلك أمرًا ملازمًا وحالا له، فكأن المحب لا يبرح بقلبه عن ذكر محبوبه، وقيل غير ذلك[٣].

وقد ذكر القرآن الكريم المحبة صفة لله تعالى فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾ (الصف: ٤) ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران: ٢١) ﴿ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ (المائدة: ٥٤). وفى الحديث: **«ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه»**.

فوصف الله نفسه بأنه يحب عباده المؤمنين، ووصف المؤمنين بأنهم

يحبونه. وصفة المحبة من الصفات الخبرية التى ورد بها السمع فى الكتاب والسنة وكانت محل خلاف بين علماء الكلام من معتزلة وأشاعرة، فمنهم من نفاها مطلقا كالمعتزلة ومنهم من تأولها بالإرادة كالأشاعرة، أما سلف الأمة فهم يثبتونها كما وردت فى القرآن والسنة بدون تأويل ولا تعطيل .

ولقد أثبت القرآن أن الله تعالى هو الذى حبب الإيمان وزينه فى قلب المؤمن: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾ (الحجرات : ٧).

وللصوفية وأصحاب الأحوال كلام كثير فى المحبة فيه الصحيح الموافق لما جاء بالكتاب والسنة وفيه السقيم المبتدع الذى رفضه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم.

٢-النفس والمحبة:

فالله تعالى خلق نفوس بنى آدم وفطرها على محبة الخير النافع وكراهية الشر الضار وذلك أمر فطرى يجده كل إنسان فى نفسه ظاهرا ، فإن نفس الإنسان معلقة بمحبة الفضائل وفعل الخيرات بمقتضى فطرتها الصحيحة، فهى تحب مكارم الأخلاق وإن فاتها أن تتخلق بها ، وتحب العلم والمعرفة وإن فاتها حظها من ذلك، وقد يبادر المرء بفعل الفضائل وتتعلق بها نفسه لا يتقرب بها إلى أحد من الخلق، ولا يطلب بها مدح أحد ، فهو يفعلها لا رغبة فى مدح ولا رهبة من ذم، ولكن لتعلق نفسه بها وصيرورة ذلك سجية وطبعا ملازما له. وهذه الأمور إذا وقعت من صاحبها على هذه الكيفية فهو بذلك يحقق لنفسه نفعا ويدفع عنها ضرا ، وهذا أمر يحسه الفاعل فى نفسه ومن نفسه ولا يحسه أحد غيره.

وتمام الدين إنما يكون بكمال هذه الفطرة وسلامتها ، وهذه الأمور التى تحبها النفس وتلتذ بها هى ما سماه الشرع بالمعروف، والأمور التى تكرهها بمقتضى فطرتها هى ما سماه الشرع بالمنكر، فأمر بالأول ونهى عن الثانى، وحب النفس لشىء ما لا يقع منها إلا بعد إحساسها بهذا الشىء، وتحقُّقُ نفعه لها إنما يكون

بعد كمال معرفة الشيء ومعرفة مدى ما فيه من نفع فتتعلق النفس به، وكذلك كراهية النفس لشيء ما إنما تحصل بعد إحساس النفس بالضرر الكامل فى هذا الشيء، أما الشيء الذى لا تحسه النفس أصلا ولا تشعر به فلا تتعلق به إطلاقا لا حبا ولا بغضا .

والنفس البشرية قد خلقت على نحو معين فهى خلقت فقيرة جاهلة عاجزة، وهى فى كل ذلك محتاجة إلى غيرها، فهى محتاجة فى فقرها إلى من يتعهدها ويتولاها، ومحتاجة فى جهلها إلى من يعلمها ما لم تكن تعلم، ومحتاجة فى عجزها إلى من تستعينه فيعينها، وهذا أمر بين من حال الإنسان فى أطوار حياته المختلفة طفلا رضيعا، وشابا فتيا، وشيخا هرماً، فالفقر والجهل والعجز من لوازم النفس البشرية ومن طبيعتها، ومعلوم أن هذه الأمور تختلف باختلاف عمر الإنسان فى مراحله المتعددة، ففقر الطفل وعجزه، يختلف عن فقر الشاب وعجزه وكذلك الشيخ يختلف فى حاله عن حال سابقيه فى كل هذه الأطوار المختلفة. ولم تبرح هذه الأحوال ملازمة للنفس، ومن إحساس النفس بفقرها وجهلها وعجزها ينشأ عندها نوع من التعلق .بمن يكفيها هذه الحاجات، فهى قد تتعلق بشخص ما، وتتوجه بولائها وحبها له إن هى علمت أنه يكفيها عجزها، أو فقرها أو جهلها» كما يتعلق الطفل بوالديه والتلميذ .بمعلمه، فإذا لم يجد المرء عند هؤلاء ما يسد فقره أو عجزه توجه بولائه إلى غيرهم، وهكذا إلى أن يثبت بولائه فى نهاية الأمر عند من يثق فيه أنه يلبى له هذه الحاجات[٤] وإحساس النفس بهذه الأمور هو الذى يحرك فيها الإرادة والتوجه إلى مطلوب بعينه فتحبه ويتعلق رجاؤها به.

فإن كل حركة ظاهرة أو باطنة مبعثها إحساس النفس بها فتتوجه الإرادة إليها، وبين الحب والبغض تتقلب أحوال النفس البشرية وتتغير، وعلى ضوء هذين الحالين تتحدد علاقة النفس بغيرها، ولا تخلو نفس بشرية من الاشتغال بأحد هذين الحالين، فهى تتقلب دائما بين محبة الحق وما يودى إليه وكراهية الباطل

وما يؤدى إليه، ومن هنا فإن النفس قد تتوجه بحبها إلى مطلوبها ومقصودها مباشرة، فيكون محبوبها مقصودا لذاته، وقد تتوجه بحبها إلى من يعينها ويوصلها إلى مطلوبها فهى تتعلق به على أنه وسيلة لنيل مطلوبها وتحصيله، وليس لأنه مقصودها وغايتها، فهى تتعلق تارة بشىء قد تحبه لذاته فيكون هو مطلوبها ومقصودها، وتارة قد تتعلق بشيء لأنه وسيلة لغيره فيكون محبوبها ليس مطلوبا لذاته بل مطلوبًا لغيره، ويكون محبوبها الأول هو الغاية والثانى هو الوسيلة. وكذلك إذا كرهت النفس شيئا ما فإنها قد تكرهه لذاته، وقد تكرهه لأنه وسيلة إلى مكروه لها.

إذا عرفنا هذه الأمور فمن اليسير الآن أن نقرر أن كل نفس لابد لها من محبوب تتعلق به إرادته،ا فيكفيها فقرها وعجزها فستعينه وتقصده. وإذا أنعم الإنسان نظره فيما حوله وفى علاقته بالمجتمع الذى يعيش فيه، وجد أن كل ما فى هذا العالم إذا تعلقت به النفس فينبغى أن يكون تعلقها به على أنه وسيلة تعين على تحقيق المطلوب، وليس على أنه هو المطلوب لذاته. ومن الأصول المقررة فى الإسلام أن الله تعالى هو المعين على تحقيق المطلوب، وهو المعين على دفع المكروه، وهو الذى يجب أن يحب ويقصد لذاته لا لغيره، وهذا هو المعنى المقصود فى قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ ﴾ ﴿نَسْتَعِينُ﴾ فعبادته تعنى قصده والتوجه إليه إنابة ومحبة، والاستعانة به هى معنى ربوبيته المتضمنة لمعنى قيوميته على خلقه، وهذا المعنى قد أدركه كبار الصوفية وأئمة القوم فعاشوه حالاً ومقالاً، وصدق الله العظيم: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

ولما كان من لوازم النفس الفقر والعجز فإن إحساسها بحاجتها إلى ربها طلبا لرعايته، وإلى عبادته، والإخبات له، ليس له نظير فيقاس به؛ لأن قلب المؤمن لا يحصل له الاطمئنان إلا بدوام ذكره لله ربًّا خالقًا وإلهًا معبودًا، وإذا حصل له ما يتنعم به أو يطمئن إليه من غير الله فإنه سريع الزوال دائم التحول، بل قد يحصل له منه ما يؤذيه ويضره فى بعض الأحوال؛ لأن كل نعيم حصل من غير الله فمصيره التحول والزوال، أما إلهه فلا بد له منه فى كل حين فلا يزول

عنه ولا يتحول أبداً. وصدق لبيدٌ رضي الله عنه:

ألا كل شي ما خلا الله باطل

وكل نعيم لا محالة زائل

هذه أصول عامة تلقى لنا الضوء على موضوع المحبة وإلى من ينبغى أن نتوجه إليه قلوبنا بحبنا وولائنا.

والرسول ﷺ قد وصف المؤمن بأنه حارث همام يعنى كثير الهمِّ والفعل. ولابد لكل نفس من مطلوب تتعلق به إرادتها وتتوجه إليه بعبادتها وقصدها، وقد لا يحصل لها المطلوب الذى تسعى إليه إلا بوسائل معينة، فالمرء محتاج فى تحقيق مرادها ومطلوبها إلى من يعينها على تحقيق ذلك المطلوب، ولو تأملنا قليلا نجد أن مرادات النفس فى هذه الحياة كثيرة ومتنوعة، لكنها كلها تطلب لغيرها ولا يراد شيء منها لذاته أصلا، فهى مرادات بالعرض وليست مرادات بالذات، والنفس البشرية لا يحدث لها الأمان والاطمئنان إلا بمراد تطلبه لذاته لا لغيره، وتقصده لذاته قصد الغايات وليس قصد الوسائل، وتستعينه لأنه هو المعين بذاته، وليس وسيلة إلى غيره فيكون هو مستعانها ومعبودها، فيتعلق به حبها لذاته لا لغيره. وهذا لا يكون إلا لله، وهنا نجد الاستعانة تتلازم مع المحبة والعبادة لأن العبد لا يعبد إلا من يستعينه ويستهديه فيدعوه ويقصده[٥]. وكبار الصوفية والمتقدمون منهم يتفقون على هذه الأصول العامة فى معنى المحبة ويجعلونها صفة لله كما وصف نفسه بذلك، ولا يتأولونها، ويجعلونها صفة للعبد كذلك. كما يتفق الصوفية على أن حال المحبة مقيدة بالخوف من الله والرجاء فيه، ولذلك فهم يجعلون أحوالهم فى المحبة مقيدة بفعل المأمور رغبة فى الثواب وترك المحظور رهبة من العقاب، وهذا حال كثير منهم. وقد نقل القشيرى عن سهل التسترى قوله: "أصل كل خير فى الدنيا والآخرة الخوف من الله" والوجل من الله متضمن خشيته ورجاءه، وإلا لكان ذلك قنوطا ويأسا فالمحبة عند كبار الصوفية ومشايخهم هى التى تقتضى فعل المأمور وترك المحظور".

وقد تكلم الصوفية عن المحبة لدى المؤمنين على مستويين :

١ -المستوى الأول : وهو درجة

السابقين فيحب المؤمن ما أمر الله بحبه وما أحبه رسوله وأمر بحبه. وهذا المستوى يشمل فعل الواجبات والنوافل وكرائم الأخلاق وهذا حال المقربين إلى الله.

٢ -المستوى الثاني: وهو حال المقتصدين الذى يمثل الحد الأدنى من الإيمان، وليس بعده من الإيمان حبة خردل. وهذا هو الحب الواجب لتحقيق معنى الإيمان؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله، والناس أجمعين» فهذا النوع يلزم عنه أن يكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن مما سواهما.

والناس هنا درجات حسب صفاء قلوبهم وامتلائها بحب الله:

١ - فهناك قوم يملكون القدرة والإرادة والمحبة ولكنهم يتوجهون بها إلى ما حرم الله ونهى عنه، فيحبون ما أبغض الله ويبغضون ما أحب الله وهذا حال كثير من الخلق .

٢ -وهناك من يملك القدرة والإرادة والمحبة ويتوجهون بها إلى تحقيق معنى الحب لله ، وفى الله، فهؤلاء سادة المحبين، وهذه المحبة الصادقة هى التى تدفع المؤمن إلى فعل الطاعة حبا لها وترك المعصية كرها لها.

٣ - وهناك من يملكون الإرادة الصادقة والمحبة التامة لكن تنقصهم القدرة والاستطاعة التامة فهؤلاء يأتون ما يحبه الله ورسوله قدر استطاعتهم، كما هو حال أهل الصفة وفى حق هؤلاء قال صلى الله عليه وسلم: (إن بالمدينة لرجالا ما سرتم سيرا ولا سلكتم واديا إلا كانوا معكم، قالوا: وهم بالمدينة يا رسول الله، قال : وهم بالمدينة حبسهم العذر)[٦].

٤ - وهناك قسم رابع فيه قدرة ناقصة، وإرادة للحق قاصرة، وفيه من إرادة الباطل القدر الكثير وهذا شأن ضعفاء المؤمنين .

وهذا المعنى السابق للمحبة يكاد يكون محل اتفاق بين سلف الأمة. ويحكى ابن تيمية أن كبار الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة يتفقون على هذا المعنى ومن أبرز ملامحه أنه لا يؤدى بالمحب إلى نوع من الفناء أو السكر، كما لا يلزم عنه ما يقول

بعض الصوفية من الحلول أو الاتحاد أو شبه ذلك.

ونستطيع أن نميز بين اتجاهين فى المحبة فى تراث الصوفية:

الاتجاه الأول: وهو الذى يلتزم فى تعبيره عن المحبة بالمعنى السابق، ويتمثله فى سلوكه فيكون المحب واعيا بما يقول ، أو ما يفعل، ويجيء مقاله عن المحبة معبرا عن حاله فيها ، ملتزما فى ذلك بالأوامر والنواهى الشرعية.

أما **الاتجاه الثانى:** فنجد المحبة عنده تأخذ معنى خاصا اصطلاحيًا ، وتجد تعبيره عنها يأخذ شكلا رمزيا أقرب ما يكون إلى الألغاز التى قد لا يفهمها إلا نمط معين من خاصة الصوفية ، ويتضح لنا ذلك من أقوالهم فى المحبة وتعريفاتهم لها.

وقد ذكر القشيرى فى رسالته أقوالا كثيرة فى المحبة ولكنها على كثرتها لا تخرج عن هذين الاتجاهين.

فالاتجاه الأول يمثله قول التسترى فى المحبة إنها : معانقة الطاعة ومباينة المخالفة بمعنى أنها التزام بأوامر الله ونواهيه، فيكون المحب موجودا عند الطاعة مفقودا عند المعصية

وأيضا قال أبو على الر وذبادى : المحبة الموافقة أى موافقة الأمر والنهى.

ونجد أصحاب هذا الاتجاه من الصوفية يرفضون استعمال لفظ العشق أو الشوق فى موضع المحبة؛ التزاما منهم بألفاظ القرآن واستعمالاته فإن لفظ المحبة لفظ قرآنى، أما كلمة العشق أو الشوق فهى قد تصلح لما بين البشر، أما مع الله فلا يجوز استعمالها ولا وصفه بها لا عاشقا ولا معشوقا ، ويعلل أبو على الدقاق ذلك بأن لفظ العشق يحمل معنى تجاوز الحد فى المحبة ، والحق سبحانه لا يوصف بأنه يتجاوز الحد فى حبه لا عاشقا ولا معشوقا ، فلا يصح إطلاق لفظ العشق فى حقه؛ لأنه لو جمعت محبة الخلق كلهم فى شخص واحد ما بلغ ذلك استحقاق قدر الله فلا يقال أن عبدا جاوز الحد فى حبه لربه.

أما أصحاب الاتجاه الثانى، وهم الكثرة الغالبة فى تراث الصوفية ، فقد عبروا عن حالهم فى المحبة بألفاظ رمزية وغلوا فى ذلك حتى خرج

بعضهم عن المحبة المشروعة، إلى ألوان من الفناء الذى انتهى ببعضهم إلى الحلول أو الاتحاد، فكان حالهم بدعيًا لا شرعيًا.

ولقد ذكر القشيرى عن السَّرىِّ السَّقَطى قوله فى المحبة : لا تصلح المحبة بين اثنين حتى يقول أحدهما للآخر: يا أنا.

وقال الشبلى : المحب إذا سكت هلك.

وقال أبو يعقوب : لا تصلح المحبة إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبة.

وتكلم الشيوخ فى المحبة فى موسم الحج، وكان فيهم الجنيد وكان صغير السن، فقالوا له: هات ما عندك يا عراقى، فأطرق رأسه ودمعت عيناه ثم قال: عبد ذهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم فى حقوقه ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هويته، وصفا شربه من كأس وده، وانكشف له الجبار من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكت فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ.

وقيل : المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه. وقيل : الحب أوله خبْل وآخره قتْل[٧]

ولقد تطور مفهوم المحبة عند كثير من الصوفية، وزاد بعضهم فى استعمال الرمز والتعمية، ويقول الكلاباذى وهو من كبارهم فى كتابه "التعرف": إن للقوم عبارات تفردوا بها، واصطلاحات فيما بينهم لا يكاد يستعملها غيرهم.

ويمكن القول بأنه طرأ فى أواخر القرن الثالث الهجرى تغير وتحول على نمط الحياة الروحية فى التصوف عامة، فلقد تحول مفهوم الحب عند صوفية القرن الرابع تحولا جذريا عما قرأناه عند متقديمهم، ونشأ عن هذا المفهوم الجديد مذاهب مختلفة فى الفناء، والحلول، والاتحاد.

واتخذ بعض الصوفية من أسماء المحبوبات فى الشعر العربى رمزا يتغنى به مشيرا إلى محبوبه وهو الله، وتحدثوا فى الفناء والبقاء والصحو والسكر.. . إلخ. وتحول التصوف على يد متصوفة القرن الرابع وما بعده من

سلوك واقتداء، إلى تمذهب وابتداع.

يقول الكلاباذى معبرا عن هذا التحول الخطير، لم يزل يدعو الأول الثانى والسابق التالى بلسان فعله. . حتى قل الرغب، وفتر الطلب، فصار الحال أجوبة ومسائل وكتبا ورسائل، فالمعانى لأربابها قريبة، والصدور لفهمها رحيبة، إلى أن ذهب المعنى وبقى الاسم، وغابت الحقيقة وحصل الرسم، فصار التحقيق حلية والتصديق زينة، وادعاه من لم يعرفه، وتحلى به من لم يصفه، وأنكره فعله من لم يفعله بلسانه فجعل حقه باطلا، وسمى عالمه جاهلا، وانفرد المتحقق فيه ضنًّا به، وسكت الواصف له غيرة عليه، فنفرت القلوب منه وانصرفت النفوس عنه، فذهب العلم وأهله ، والبيان وفعله ، فصار الجهال علماء والعلماء أذلاء.

وأشار القشيرى فى أول رسالته إلى شىء من ذلك أيضا.

ويمكن القول على سبيل الإجمال: إن تعريف التصوف قد تغير عند متصوفة القرن الثالث وما بعده، تبعا لما طرأ عليه من تحول وتغير، ووصف كل شيخ تجربته فى المحبة بوصف خاص ينبع من واقع حاله ، ونلمح فى كثير من تعريفات القرن الثالث أثرا لثقافات مختلفة بدأت تطغى على ما هو إسلامى أصيل فى الحياة الروحية، وظهر بشكل مذهبى اصطلاحى كلام فى المحبة، والعشق، والوجد، والصحو، والسكر، والفناء، والبقاء، و لم يكد ينتهى القرن الثالث حتى وجدنا عند بعضهم كلاما فى الحلول والاتحاد، انطلاقًا من كلامهم فى المحبة والظاهر والباطن والحقيقة والشريعة، مما يدل على الآثار الواقدة التى بدأت تؤثر فى مسيرة الحياة الروحية لدى هؤلاء المتصوفة.

وفى كتب الصوفية آثار ومرويات كثيرة يمكن مقارنتها بما يروى عن أوائل الزهاد فى القرن الأول والثانى؛ لندرك الفرق واضحا بين هؤلاء وأولئك؛ فالجنيد «ت ٢٦٧هـ، وهو الملقب بسيد الطائفة - يمكن لقارئه أن يدرك الفرق بين أقواله وأقوال نظرائه فى أواخر القرن الأول والثانى من أمثال الحسن البصرى

وسفيان الثورى وغيرهم فهو يتكلم عن الفناء، والحقيقة، والقبض، والبسط من واقع تجربته فى المحبة.

فيقول : قعدت ثلاثين سنة حارسا على باب القلب، وحفظت القلب وقد حافظ على قلبى عشر سنوات ، والآن بعد عشرين سنة لا أعلم شيئا عن القلب، ولا يعرف القلب شيئا عنى، وغادرت الدهر بحيث بكى علىَّ أهل الأرض والسماء، ثم صرت بحيث كنت أبكى أنا على غيابهم، والآن أصبحت بحيث لا أعلم عنهم ولا عن نفسى شيئا، الخوف يقبضنى والرجاء يبسطنى، فمهما أكن منقبضا بالخوف يكن ثمة فناء، وعندما أنبسط بالرجاء يعيدون إلىَّ نفسى.

كما ورد عنه قوله: فقدت يوما قلبى فقلت يا إلهى رد على قلبى فسمعت مناديا يقول: يا جنيد نحن سلبناك القلب لكى تكون معنا. . أتريد أن تبقى مع غيرنا هنيئا لذلك الشخص الذى نال الحضور ولو ساعة واحدة طيلة عمره.

التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويميتك به.

من يقول : الله، دون أن يراه فهذا كذب.

ما دمت تقول: الله، وتقول : عبد، فهذا شرك؛ لأن العارف والمعروف واحد، كما قالوا: ليس فى الحقيقة إلا هو، ها هنا الله فأين العبد، أى أن الكل هو الله[٨].

ويتكلم السراج فى كتاب اللمع عن المحبة عند الصوفية ويقسمها إلى درجات ثلاثة :

١ - **محبة العامة**: وهى مِنْ إحسان الله إلى العبد لأن قلب العبد مجبول على محبة من يحسن إليه، وقد اشترط سمنون لهذا النوع من المحبة صفاء الود مع دوام الذكر لأن من أحب شيئا أكثر من ذكره على لسانه وفى قلبه.

٢ -و**محبة المتحققين**: وهى وليدة نظر القلب فى الصفات الإلهية، ويصفها أبو الحسين النورى بقوله : "إنها هتك الأستار وكشف الأسرار".

٣ -و**محبة العارفين**: وهى وليدة المعرفة الكاملة بأن الله يحبهم، بدون سبب أو علة وإنما .بمحض فضله، وهم كذلك يحبونه بدون علة أو

سبب. ومن خصائص هذا النوع أن يفنى المحب فى محبوبه عن محبته، فإذا كان عالما بمحبته فى نفسه فمحبته غير صحيحة، ولا تصح المحبة هنا الا بفناء المحب عن حبه، وعن علمه بحبه، وقد عبر عنها الجنيد بقوله: (المحبة أن تحل صفات المحبوب محل صفات القلب المحب مصداقا لقوله النبى ﷺ : «**فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها**».

ويشير القشيرى فى الرسالة إلى أن (ذا النون المصرى) أول من استعمل الرمز فى التعبير عن المحبة، فتكلم عن كأس المحبة والمحبين والشراب والسكر وشراب المحبين والعارفين، ووصل بذلك إلى درجة اتحاد المحب بالمحبوب، وعبَّر عن ذلك شعرا؛ فقال:

اطلبوا لأنفسكم
مثلما وجدت أنا
قد وجدت لى سكنا
ليس فى هواه عنا
إن بعدت قربنى
أو قربت منه دنا[٩]

وكذلك كان كلام سهل التسترى (٨١٦ -٨٩٦ م) عن المحبة، التى فضل التعبير عنها بمصطلح خاص به هو (المسارَّة)، بمعنى المسامرة التى تكون بين المحبين سرا مكتوما لا يباح به لغيرهما، ومن منطلق المحبة بين المتسامرين يكون خضوع المحب لأوامر محبوبه طلبا لرضاه، وحبا له، وحبا فيه، وليس خوفا من بطشه وعقابه؛ ولذلك فإن المحبة عند التسترى تعنى ملازمة الطاعة، والالتزام بأوامر المحبوب؛ فهى كما عرفها (موافقة القلب لله) وذلك أسمى مراتب المحبة[١٠].

ومن علامات المحب عنده ألا يغفل عن ذكر حبيبه شغوفا شاعرا بمعيته، والحب عنده عطاء وهبة من الله، يتفضل به الله على العارفين من عباده دون انتظار أو سؤال منهم حين يستشعر المحب بمعيته؛ حيث ينصرف الذاكر عن كل لفظ يردده لسانه إلى حضور قلبى يغيب الذاكر فيه عن نفسه، ويأتنس بحضرة محبوبه، فيفنى عن نفسه ببكائه بحضرة ربه[١١].

ويفسر الحلاج نظريته فى الخلق فى ضوء رأيه فى المحبة، حيث يجعل المحبة علة الوجود، فيقول:

تجلى الحق لنفسه فى الأزل قبل أن يخلق الخلق... وقبل أن يعلم الخلق، وجرى له فى حضرة أحديته مع نفسه حديث لا كلام فيه ولا حروف، وشاهَدَ سبحات ذاته فى ذاته، فى الأزل، حيث كان الحق ولا شيء معه، نظر إلى ذاته فأحبها، وأثنى على نفسه، فكان هذا تجليا لذاته فى ذاته فى صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حد، وكانت هذه المحبة علة الوجود والسبب فى الكثرة الوجودية ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلا فى صورة خارجية يشاهدها ويخاطبها وهى آدم الذى جعله الله صورته أبد الدهر[١٢].

ولما خلق آدم على هذا النحو مجده فاختاره لنفسه، وكان من حيث ظهور الحق لصورته فيه وبه، هو هو).

سبحان من أظهر ناسوته

سر سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا فى خلقه ظاهرا

فى صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه

كلمحة الحاجب بالحاجب

إن لم تعرفوا الله فاعرفوا آثاره وأنا ذلك الأثر، وأنا الحق لأنى مازلت أبدا بالحق حقا[١٣].

يقول ابن قيم الجوزية: "الحمد لله الذي جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلا، ونصب طاعته والخضوع له على صدق المحبة دليلاً، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثارًا لطلبها وتحصيلاً، وأودعها العالم العلوي السفلي لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجادًا وإمدادًا وقبولاً، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصًا لها وتأهيلاً، فسبحان من صرف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته، واستخرج بها ما خلق له كل حي بحكمته، وصرفها أنواعًا وأقسامًا بين بريته، وفصلها تفصيلاً، فجعل كل محبوب لمحبه نصيبًا ...: إلى أن قال: "وفضل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلاً، فبالمحبة وللمحبة وجدت الأرض والسموات، وعليها فطرت المخلوقات، ولها تحركت الأفلاك الدائرات، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها، واتصلت بداياتها بنهاياتها، وبها ظفرت النفوس بمطالبها، وحصلت على نيل مآربها، وتخلصت من

معاطبها، واتخذت إلى ربها سبيلاً، وكان لها دون غيره مأمولا، وبها نالت الحياة الطيبة، وذاقت طعم الإيمان لمَّا رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً"[١٤].

أ. د/ محمد السيد الجليند

الهوامش:

(١) ورد الحديث فى مسلم – كتاب الذكر، الترمذى كتاب الجنائز، وفى الموطأ كتاب الجنائز.

(٢) ورد فى مسلم كتاب الإيمان، والبخارى كتاب الإيمان.

(٣) انظر الرسالة القشيرية: ١٤٥ ، ط/ القاهرة، وانظر مادة حب فى لسان العرب لابن منظور، وأساس البلاغة للزمخشرى

(٤) راجع فى هذا الموضوع: رسالة فى أن للعبد محبة لابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم: ٤٤٥ -٤٥٢.

(٥) راجع كتاب التوحيد لابن تيمية: ٨٤ ، ٨٠ -٩٠ تحقيق المؤلف.

(٦) انظر البخارى ٢٦/٤، كتاب الجهاد – باب من حبسه العذر.

(٧) الرسالة: ١٤٥ -١٤٦

(٨) تذكرة الأولياء الباب ١٣ فى ذكر الجنيد عن تاريخ التصوف، د/ قاسم غتى ترجمة د/أحمد القيسى، د/ محمد مصطفى حلمى: ٧٦ -٧٩.

(٩) صفوة الصفوة: ٢٨٧/٤، الرسالة: ٥ -٨: تذكرة الأولياء: ١١٤/١ -١١٥.

(١٠) التراث الصوفى لسهل التسترى -أ.د/ المرحوم محمد كمال جعفر: ١٨٣، واللمع للسراج: ٥٨.

(١١)التراث الصوفى التسترى: ١٩٦ -٢٠٠.

(١٢) الطواسين: ١٢٥ -١٢٩.

(١٣) نفسه.

(١٤) روضة المحبين لابن قيم الجوزية (المقدمة ص٣ وما بعدها).

مراجع للاستزادة:

١ - كتاب التوحيد وإخلاص الوجه والعمل لله لابن تيمية، تحقيق: د/ محمد السيد الجليند.

٢ - تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار.

٣ - كشف المحجوب للهجويرى.

٤ - التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى.

٥ - اللمع للسراج.

٦ - تاريخ بغداد ١٢٢/٨ وما بعدها.

٧ - تراث التسترى بتحقيق أ.د/ محمد كمال جعفر.

٨ - صفوة الصفوة لابن الجوزى.

٩ - حلية الأولياء لأبى نعيم.

١٠ - الطوسين للحلاج.

١١ - من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة للدكتور محمد السيد الجليند.